اتجاهات جديدة في الرواية الأوروبية

بقلم: د. سهير القلماوى

ولكن يحسن بنا ونحن نتكلم عن طغيان الأشياء على الانسان في الرواية الحديثة ، ان نشير الى امتيازها بشخصية خاصة تضاءل الشخصية الانسانية وتنازعها مجالها واهميتها ، اعتراف الروائيين الجدد بأن كل هذه الأشياء انما تحمل مبررات دخولها الرواية من كونها من مقتنيات الانسان ، انه الانسان هو الذى يضفى عليها حبه واهتمامه عندما يتناولها بمختلف الحواس في مختلف الظروف . ولذلك نجد روائية مثل « مرجريت دوراس » في روايتها « بعد ظهر السيد أندسماس » تصف هذه الأشياء في غناء شعرى موسيقي فاذا بهـــا تكتسى من هذا الاسلوب المتغنى في الوصف حلة ملائكية أثيرية مسوحة من ظلال خطر الموت والفناء الراجف عليها .

وفي هذا الجو نرى ان موضوعات السياسة والعلاقات الدولية والتجارة والصناعة كلها تأخذ ابعادها الحقيقية فتضاءل اهميتها اثناء عملية ادراجها ضمن الاهتمامات الشخصية الصغيرة التى تحفل بها حياتنا اليومية . ان الحدث القصصى نفسه يصبح عاديا غير جذاب ، يصبح أوضح واصرح من أن نضيع فيه الوقت : والموضوعات الجنسية تأخذ أيضا وضعها الحقيقي فتدخل ضمن ما يهتم به الانسان ، وتصبح بعضا من شواغله وان تزعم أحيانا هذا البعض .

وكثيرا ما نرى في موضوعات الجنس مجال سخرية أو وسيلة اضحاك عندما يمرر الروائي بعض المظاهر العادية المعروفة التي يتعرف عليهـــا القارئ بسرعة لأنها مألوفة عادية ، ولكنها رغم عاديتها لم يلحظها الروائيون القدامى مع انهم قبلوا الموضوع بحثا . ان مجرد تغيير الزاوية التى منها ننظر الى الموضـــوعات ، أو مجرد تغيير سلم ترتيب هذه الموضوعات او مجرد تحوير العلاقات بين هذه الموضوعات بعضها البعض ، ان مجرد هذا يفجر امامنا مواقف جديدة غريبة ، بل انه يفجر عالما آخر يذخر بالعجائب والمجائب . ومن هنا يحس الروائي الجديد بالأمل المنعش الذى يحفزه على مزيد من التجديد .

ان في الحياة معنى لا ينضب من المواقف ، من العواطف والمعاني تنجل في كل هذا الخضم المتروك من صغائر الأعمال او صغير العواطف . ان دقتها وصغرها بل تفاهتها أحيانا لا تمنعها من أن تكون ممتعة رقيقة حرية بالتأمل والتصـــوير . ان هذه الأشياء كلهـــا قد ارتفعت الى نفس المستوى الانساني أو لقد نزلنا نحن الى مستواها ، وفي الحالين أصبحنا نراها على نفس المستوى ، وانه لمن الممتع حقا ان نراها بعد ان تضخمت قيمتها وكبرت في هذا الوضع الجديد . فأصبحت مع الانسان على مستوى واحد .

ويؤكد « ناتالي ساروت » ان مستقبل الرواية ليس في محاولة التماس أدوات تصوير جديدة أو في تطوير « تقنية » الفن الروائي نفسه ، وانما مستقبلها الحق في هذا الانفساح لكل شيء في فتح ابوابها الى كل شيء والى مالا نهاية .

ان الحيل الجديدة والغرائب والشذوذ لا يمكن أن تحدد شباب الرواية ، وانما الرواية تتجدد حين نؤمن ان تقدمها وتطورها انما هو متداخل في تطور الانســـان متشابك مع تقدم الحياة الانسانية ؛ بل ان تقدمها مؤثر في هذا التطور مكيف لهذا التقدم ، لا بمجرد القدرة على تعيين الطريق او الاشارة اليه ، وانما بالمساعدة الايجابية على ان تجتاز الانسانية هذا الطريق . فهي تعين الانسان عن قرب على أن يخطو الى مستقبل أرقى وأكثر تقدما .

لذلك ينظر الروائيون الجدد الى الرواية على انها ارقى من مجرد وسيلة ممتعة فيه ، انها عمل جاد فني بل علمي أيضا . ويكتب « ميشال بوتور » مقالا بعنوان « الرواية بحث علمي » فيقول : « ان الرواية تقرير علمي عن شيء اهم من مجرد الادب انها طريقة اساسية لمعرفة الحقيقة » .. انما نسمع تقريرات عما حدث أو قيل أو فعل في البيت أو في الشارع أو في مكان عملنا نسمعها صباح مساء ونسمعهـــا من تقاريرنا أو من نقرأ لهم ، ولكن الرواية ليست تقريرا من هذه التقريرات اليومية عن الأقوال أو السلوك . انها تختلف اختلافا بينا . ذلك انه ليس من الممكن أبدا أن نحقق فيما اذا كانت هذه الأحداث أو الأقوال قد حدثت أو قد قيلت فعلا ، انما نحن نصدقها من صيغة التعبير عنها نفسها . ومن هنـا تأتي أهمية الشـــكل في الرواية . ولقد تحجر هـــذا الشكل في الرواية التقليدية وأصبحت الرواية التي لا تثير اي نوع من التساؤلات هي الرواية المقبـــولة الرائجة . ولكن عصرنا يتطور بسرعة مذهلة — ولا يمكن أن يلائمه هذا النوع من الروايات ، بعد ان تطور العـالم كل هذه التطورات . وكما أن تطور العلم يحتاج دائما ابدا الى الحديث من الآلات ، والجديد فيها اليســـير قدما نحو مزيد من المكتشـفات والمخترعات فكذلك الرواية تحتاج الى تغيير ضخم في أدواتها لتصل الى أحدث ما يمكن أن يمدنا به العصر . من

ادواتها ان تكشف عن هذه العلاقات المعقدة والصلات الخفية بين البشر ، ثم تصفها بدقة وتقدمها تقديما علميا حديثا .

ويتزل « بوتر » في هذا المقال باللائمة على الروائيين الذين لا يريدون ان يكسروا قيود التقاليد القديمة والعادات المتحجرة البالية لانهم لا يريد ون للقارىء الا متعة سهلة بحيث لا يجهد نفسه .

بل انه ليأسف لان الروائي الذي يساير القارىء او يمشي على سنن القديم والعتيق ما يزال يحرز انتصارات سهلة سريعة . مع انه بذلك يساهم مساهمة مؤسية في ان تظل الانسانية تتحسس طريقها في الظلام . انه لا يكلف نفسه مؤونة اثارة شكوك القارىء من حيث نظرته الى الحياة او تفسيره لها ، لانه يورث القارىء الكسل سعيا وراء متعة سهلة . وليس هذا هو قارىء اليوم او القارىء الذي نريده ان يكون . ان هذه التجديدات في الرواية ليست انحرافا عن الواقعية او بعدا عن الحقيقة ، وانما هي الشرط الأساسي للوصول الى واقع اعمق وحقيقة ادق . ذلك ان كل شيء حولنا يسير بفضل العلم نحو المعرفة الاعمق والادق ؛ فلماذا تتخلف الرواية في عصر العلم وتنكر آثار العلم الذي اثر في كل شيء . ان الرواية الحديثة اشرف من ان تكون مجرد متعة ، ان لها دورا رئيسيا في النظام الاجتماعي الجديد . انها تقدم بطريقتها بحثا علميا دقيقا منظما في سبيل فهم حقيقة الانسان وحقيقة الحياة الانسانية .

والرواية الجديدة كما يراها النقاد الجدد هي الوسيلة الأفضل لرسم الدور الذي يجب ان نلعبه « الأنا » من الناحية الانسانية في حياة البشر . ان « الانا » الانسانية تتجاوب اصداؤها في النفس ذاتها كما تتجاوب اصداؤها مع الغير ؛ هذا الغير الذي نحدثه ويحدثنا ننصت اليه وينصت الينا . هذا الغير الذي نصبح واياه شيئا واحدا حينا وشيئا متميزا عنه حينا آخر ... شيئا متصلا بنا ومنفصلا عنا في آن واحد . ان الانسان هو نفسه وهو غيره في ذات الوقت . فالاحوال العقلية والمواقف الشعورية والسلوك كلها تكون الانسان الفرد ، وكلها في الواقع وعند الدرس الدقيق مجال مشاركة وتشابه بين الناس اجمعين . انها تميز الفرد ولكنها تشركه مع غيره في الوقت نفسه . ولذلك يستطيع الروائي ان يستخرج من ذات نفسه ادوارا كثيرة من مجموع هذه الأدوار التي تكون نفسه . وهذه الأدوار تتجاوب وتتفاعل مع القارىء الذي يجد فيها تسرية لنفسه . انه يجد نفسه يشاركها في الرفعة والتعسة في الصعود والهبوط امام مختلف المؤثرات . ولتكن اسماء هذه الشخصيات ما تكون ، بل ولتكن بلا اسماء بالمرة .

لقد وصل الانسان الى مرتبة الانسانية عن طريق الحركة ، وحركة الصوت خاصة . ويعود الفضل الى مجموعة عصبية والى عقل يستطيع أن يتلقى الصوت أو

المؤثر ، فاذن من الممكن أن يتجاوب الانسان مع غيره ، واذن غيره ايضا من الممكن أن يتجاوب معه . يتبادل مع غيره المؤثرات ثم الاتصال بها . واستطاع الانسان أن يصل الى العلم والى أن يرقى به يوم استطاع أن يهذب هذه الحركات وان يرصدها ويحددها بحيث اصبحت تعنى للفرد ما تعنيه لغيره ، تعنى للمتلقى ما تعنيه بالنسبة لمن يصدر منه . وبذلك استطاع الانسان أن يصل الى نوع من التجاوب المركب الدقيق . ولكن الحديث مايزال يدور بين الناس في عملة من العلم ، او فيما يجاور نطاقه . هذا العلم الذى ما يزال يغير العالم ويعيد صنعه قد لا يعرف شيئا عن أسرار هذا الحديث الذى يدور بين الناس وعن أسرار ما يثير في الناس حديث بعضهم الى البعض من مؤثرات .

ان التقدم في وسائل الالتقاء بين الناس هو الذى ارتقى بالانسان . ولكن هذا «الالتقاء» يتعدد ويتنوع ، والذى يعنينا في الرواية هو الاتصال أو الالتقاء الذى يثير تجاوبا انسانيا .

واننا دائما نحتاج الى صاحب كلمة ليبلغ الانسان ما يراد له ان يعرف ذلك انه لو صدرت الكلمة عن غير الانسان مصورة عن دولة او شركة او نحو ذلك فان الاتصال عندئذ يفقد او لا الا على درجة دنيا ضعيفة . اننا نريد عالما يتحدث فيه الانسان ، انما الى الانسان يتحدث عما يحس وعما يهمه ويهم الآخرين . والتقدم في الحياة لا يحدث الا نتيجة الاتصال بين الناس ، نتيجة الحديث عن طريق مشاعر الفرد الطبيعية بمثلها النقاء عند الغير . ولقد برعت « تاتالى ساروت » في هذا الاتجاه ، فهي تصف كل شيء خاص وذاتى ولكن مكتشفاتها هى في اسرار ما هو عام ويشترك بين الجميع وهو في ذات الوقت شاذ ومنفرد . انها تستطيع أن تربنا الحب في الكراهية والبهجة في الشيء للشعر الغريب .

والانسان اجتماعى بطبعه كما يقول الفلاسفة ، والمجتمع يتألف من الذوات أو مجموعات الانا ، ولكن لا يتألف منها كما عدديا . فلكل انسان صوته الخاص وطريقته في التعبير والحديث ولكنه يستعمل لغة الجماعة . ولقد شهر دستوفسكى الروائى الروسى الأشهر بمهارته في الكشف عن المتناقضات في كل ما كنا نظن انه متماسك متناسب ومتسق بل كل ما كنا نظنه خاضعا للمنطق وللعقل في السلوك الانسانى لقد برع في تصوير الازدواجات المحيرة بين الكبرياء والذلة في شخصية الاب في رواية « الاخوة كارامازوف » . انها كلها اشعاعات هذه الرغبة الملحة الجامحة المركبة في طبيعة الانسان التى تدفعه الى أن يتصل باخيه الانسان . وفي ظل العلم تفهم هذه الغريزة فهما دقيقا جيدا . ان جوهر الطبيعة في النفس البشرية هو السرعة الاتصالية وتطور هذه الطبيعة وسائلها لا يتم الا بالتأثر وبالتأثير ، أى لا يتم الا عن

طريق الاتصال بالغير واتصال الغير بها - وكما انه لابد للجسد من ماء وهواء فكذلك لابد للنفس من احتكاك واتصال - فان لم يكن اتصال بالحب فليكن بالكره ، وان لم يكن بالاحترام فليكن بالازدراء أو بالخوف أو بالشفقة أو بأى شىء ، ولكن النفس تتزع الى الحب والى الاحترام وتتوق اليهما .

ان النفس البشرية دائما عطشى الى من تحدث ، الى من تتعامل معه على أى صعيد وبأى شكل . ان الناس كما تقول « ساروت » يجتمعون على الخاجة الملحة لأن يلفتوا الى ذواتهم الأنظار ، لأن يتصلوا بالغير ، لأن يحس الناس بوجودهم ويدخلوهم في زمرتهم . وهذه العملية الطبيعية سهلة بالنسبة للبعض ؛ ولكن البعض الآخر يضطر الى المبالغات الفاسية ، بل قد يدفع الى الجريمة نفسها ليظفر بهذا الاتصال . وترى ساروت ان أكثر من أثر فى الرواية الأوروبية من هذه الناحية هو الكاتب النمسوى « كافكا » ان بطله يتضاءل حتى ليصبح مجرد حرف « ك » . بل ان مطامعه المشروعة في ان يحب أو يصادق أو يزامل تتضاءل فتصبح مجرد الرغبة فى ان جهوده كلها توجه نحو ان ينتهى الى أى شىء ان يتصل بأى احد ان يبرىء نفسه من تهمة لا يعرف عنها شيئا . وجهوده كلها تبوء بالفشل . فهو لا يعرف مما يبرىء نفسه ويعجز عن ان يتصل باحد . انه لا وجود له ولا مكان لوجوده فهو مضطر الى ان يكون لا شىء ؛ لا احد . سواء كان بريئا أم غير بريء . وبهذا ومن هذا يظل علينا فجر معسكرات الاعتقال وسجون العذاب الوحشى حيث لا يعرف احد جريمته ولا يستطيع ان يبرىء نفسه امام احد . حيث جماعات لا تتواصل وليس من حقها ان تتصل .

وبأتى « بيكت » ومجموعته من أمثال « هارولد بنتر » ليصور لنا هذا البطل الذى ينتظر من لا يجىء أبدا . أو هذا الذى يحاول انقاذ صلة وهمية من النوع الأخير أو الذى يأسى على صلة لم تكن شيئا أبدا فى أى يوم من الايام ويراها تتوب بين يديه رغم ذلك . ويتأثر المسرح بنفس هذا النبأ فى تصوير الشخصية والحدث وكذلك السينما تتأثر هى الأخرى فتخرج فى السنوات الأخيرة فلم « هيروشيما حبى » . ولكن الرواية تتفوق على المسرح وعلى السينما فى هذا . فى أنها تستطيع أكثر من المسرح والسينما أن تصف أحوالا عملية ومواقف نفسية لا يمكن ان تحشرها حشرا فى حوار ينطقه ممثل أو حركة يتحركها فى نطاقها . ان الشخصيات الخيالية يمكن ان تكون شخصيات من مسرح العرائس لا أصل لها ، ولكن الأحوال النفسية والعقلية حقائق ووقائع . وعلى هذا يتجه الروائيون فى عهد رائد منجد صامد الى اكتشاف الحقائق عن النفس حقائق الذات الانسانية التى لا يمكن الا للرواية أن تكتشفها ، والا لوسيلة الرواية الفذة ان تحرز أى نصر فى سبيل الوصول الى أعماقها .

وليس كل ما في الرواية الجديدة جديدا كله . ان العناية بالمادي لم يبتكرها الروائيون الجدد ، فمنذ قديم كان الروائيون يلاحظون بدقة كيف تسير الحياة وكيف تفود في بطء ورفق الى مأساة الموت . ولقد حاولوا الكثير في سبيل تحسين الوسائل والطرق الفنية وكل ما هو جديد في هذا المضمار بل كل ما هو أحدث ما وصلوا اليه ينذر بأنه أصبح مجرد حيل وألاعيب ، ومن هنا جاء جديد الروائيين الجدد في انه ليس اتقان أداة أو تحسين وسيلة ، وانما هو نظرة جديدة من زاوية جديدة وانفساح أمام الرواية كانفساح المجال أمام الحياة نفسها . ولقد يتعلق القارىء بروائيين قدامى لا يمكن أن يتفوق عليهم أحد فيما أتقنوه من جوانب في الفن الروائي ، أو قد يحبونهم على ما هم عليه كما نحب أحيانا صديقا على عيبه بل نحب عيبه .

ان الجهود التي بذلت للتفوق على الروائيين القدامى ترجع ايضا الى عصور سابقة و « ميشال بوتور » يرجع الفضل في طريقته الحديثة الى حراة بلزاك أو صراحته الفلسفية .

ونحن حاسة الروائيين الجدد لنسمت من هذا القبيل = انهم يؤمنون ايمانا وثيقا (وحماستهم تتدفق تدفقا فيما يكتبون) بأن امكانيات الرواية لا حدود لها لأن الحياة نفسها لا حدود لها . والرواية تستشرف عالما فسيحا رحبا لا يحده ماض ولا حاضر ولا مستقبل . اما مادا يحيي لهم القدر أو الغد ، واما مادا يمكن أن يعيدوه من الفرص التي ستتسح لهم فان هذا كله لا يمكن أن يحد الا بمقدار ما يمكن أن تحدد حياة الانسان على هذه الأرض بل على الأرض وفي الفضاء . انهم واثقون انهم سيجدون دائما أبدا شيئا قد تركه من سبقوهم . ولهذا فهم واثقون أن الروائي سيقدم دائما لقارئه مثيرات للعجب وللتساؤل وللشك ، بل سيقدم فرصا أوسع لمزيد من العلم ومزيد من الأمل في علم جديد يكشف كل يوم عطاء جديدا عن سر الحياة . وقول فولكنر الذي مازال الروائيون الجدد يستلهمون به هو ان مهمة الرواية الأسمى الأحق والأعمق هي في أن تكشف دائما عن الجديد . والخطيئة الكبرى التي يمكن أن يقع فيها الروائي هي تكرار ما سبق أن اكتشفه السابقون » .

وهكذا تبهت أمام هؤلاء المجددين كل المحاولات السابقة للهجوم على عالم فسيح ودنيا رحبة وتصوير كل ما شاءوا وكيفما شاءوا جوانب هذا الانسان من خلال نفسه ، ومن خلال ما حوله ، ومن خلال الآخرين ، بل من خلال ما يصدر عنه من مؤثرات في غيره وما يتلقى في الوقت نفسه من مؤثرات من الغير .